بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ ٢٣ ذو القعدة ١٤٤٢هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ فِي تَعَاقُبِ الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، كَشْفًا عَنْ مَعَادِنِ النُّفُوسِ، وَطَبَائِعِ الْقُلُوبِ؛ حَيْثُ يُمَحِّصُ اللهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَكْشِفُ الزَّائِفِينَ. وَإِنَّ مِمَّا حَثَّ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ، وَعَظَّمَهُ الْقُرْآنُ: الثَّبَاتَ عَلَىٰ الدِّينِ، وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَيْهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الثَّبَاتَ عَلَىٰ دِينِ اللهِ، وَالِاعْتِصَامَ بِهِ فِي الْفِتَنِ وَالشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ يَدُلُّ عَلَىٰ سَلَامَةِ الْإِيمَانِ، وَحُسْنِ الْإِسْلَامِ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَمَا أَعَدَّهُ اللهُ ﷻ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي الْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَمَا أَعَدَّهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم﴾. إِنَّ الثَّبَاتَ عَلَىٰ دِينِ اللهِ خُلُقٌ عَظِيمٌ، وَمَعْنًىٰ جَمِيلٌ، لَهُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ الثَّابِتِ، وَفِيمَنْ حَوْلَهُ مِنَ النَّاسِ مُؤَثِّرَاتٌ مُهِمَّةٌ، تَفْعَلُ فِعْلَهَا، وَتُؤَثِّرُ أَثَرَهَا، وَفِيهِ جَوَانِبُ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ الْفَائِقَةِ فِي تَرْبِيَةِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ، فَصِفَةُ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَىٰ مَنْهَجِ الْحَقِّ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، حَبَا اللهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ وَصَفْوَةَ خَلْقِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِهَا، فَقَالَ ﷻ مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الثَّبَاتَ عَلَىٰ دِينِ اللهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ سَلَامَةِ الْمَنْهَجِ، وَدَاعِيَةٌ إِلَىٰ الثِّقَةِ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ طَرِيقُ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ. فَالْمُؤْمِنُ يَصْبِرُ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُ مُوقِنًا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِنَ الذَّمِّ لَكَ، وَالتَّكْذِيبِ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَاشْتَغِلْ عَنْهُمْ وَالْهُ بِطَاعَةِ رَبِّكَ وَتَسْبِيحِهِ، أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ، وَفِي أَوْقَاتِ اللَّيْلِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ؛ فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَىٰ مُسَلٍّ لِلنَّفْسِ، مُؤْنِسٌ لَهَا، مُهَوِّنٌ لِلصَّبْرِ. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾. قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ عَلَىٰ مَا أُمِرتَ

بِهِ وَعَلَىٰ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ اللهِ، وَلَوْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ إِعْرَاضًا فَلَا يَصُدَّنَّكَ ذَلِكَ.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أَيْ: لَا شَكَّ فِيهِ وَهَذَا مِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ الصَّبْرِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ عَمَلَهُ غَيْرُ ضَائِعٍ بَلْ سَيَجِدُهُ كَامِلًا، هَانَ عَلَيْهِ مَا يَلْقَاهُ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَيُيَسِّرَ عَلَيْهِ كُلَّ عَسِيرٍ، وَاسْتَقَلَّ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ كَثِيرٍ.
﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ أَيْ: قَدْ ضَعُفَ إِيمَانُهُمْ وَقَلَّ يَقِينُهُمْ، فَخَفَّتْ لِذَلِكَ أَحْلَامُهُمْ، وَقَلَّ صَبْرُهُمْ، فَإِيَّاكَ أَنْ يَسْتَخِفَّكَ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَجْعَلْهُمْ مِنْكَ عَلَىٰ بَالٍ، وَتَحْذَرْ مِنْهُمْ وَإِلَّا اسْتَخَفُّوكَ وَحَمَلُوكَ عَلَىٰ عَدَمِ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَالنَّفْسُ تُسَاعِدُهُمْ عَلَىٰ هَذَا وَتَطْلُبُ التَّشَبُّهَ وَالْمُوَافَقَةَ، وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُوقِنٌ رَزِينُ الْعَقْلِ يَسْهُلُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ، وَكُلَّ ضَعِيفِ الْيَقِينِ ضَعِيفُ الْعَقْلِ خَفِيفُهُ. فَالْأَوَّلُ بِمَنْزِلَةِ اللُّبِّ، وَالْآخَرُ بِمَنْزِلَةِ الْقُشُورِ، فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.
اهـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ لِلِابْتِلَاءِ فَوَائِدَ عَظِيمَةً. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي: «زَادِ الْمَعَادِ»: فَلَوْلَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُدَاوِي عِبَادَهُ بِأَدْوِيَةِ الْمِحَنِ وَالِابْتِلَاءِ لَطَغَوْا وَبَغَوْا وَعَتَوْا. وَاللهُ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا سَقَاهُ دَوَاءً مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ عَلَىٰ قَدْرِ حَالِهِ؛ يَسْتَفْرِغُ بِهِ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُهْلِكَةِ، حَتَّىٰ إِذَا هَذَّبَهُ وَنَقَّاهُ وَصَفَّاهُ، أَهَّلَهُ لِأَشْرَفِ مَرَاتِبِ الدُّنْيَا، وَهِيَ عُبُودِيَّتُهُ، وَأَرْفَعِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ رُؤْيَتُهُ وَقُرْبُهُ. اهـ

إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ ثَبَاتُهُ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَعَدَمُ تَلَوُّنِهِ فِيهِ. أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي: «شُعَبِ الْإِيمَانِ»، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: إِنَّ هَذَا الْحَقَّ جَهَدَ النَّاسَ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا صَبَرَ عَلَىٰ هَذَا الْحَقِّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ، وَرَجَا عَاقِبَتَهُ، إِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاسًا قَرَؤُوا الْقُرْآنَ لَا يَعْلَمُونَ سُنَّتَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنْ أَتْبَعَهُ بِعَمَلِهِ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَقْرَؤُونَهُ، إِنَّكَ لَتَعْرِفُ النَّاسَ مَا كَانُوا فِي عَافِيَةٍ، فَإِذَا نَزَلَ بَلَاءٌ صَارَ النَّاسُ إِلَىٰ حَقَائِقِهِمْ، صَارَ الْمُؤْمِنُ إِلَىٰ إِيمَانِهِ، وَالْمُنَافِقُ إِلَىٰ نِفَاقِهِ.

وَأَخْرَجَ الْهَرَوِيُّ فِي: «ذَمِّ الْكَلَامِ وَأَهْلِهِ»، وَابْنُ بَطَّةَ فِي: «الْإِبَانَةِ الْكُبْرَىٰ»، وَاللَّالَكَائِيُّ فِي: «شَرْحِ أُصُولِ الِاعْتِقَادِ»، عَنْ خَالِدِ بْنِ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: اعْهَدْ إِلَيْنَا، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُكَ بِأَحَادِيثَ، قَالَ: أَوَ مَا أَتَاكَ الْحَقُّ الْيَقِينُ؟ قَالَ: بَلَىٰ، قَالَ: اعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَعْمَىٰ الضَّلَالَةِ أَنْ تَعْرِفَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ، أَوْ أَنْ تُنْكِرَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ، وَإِيَّاكَ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ، فَإِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ»: وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ، فَمَا يُعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَلَا صَالِحِ عَامَّتِهِمْ رَجَعَ قَطُّ عَنْ قَوْلِهِ وَاعْتِقَادِهِ، بَلْ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ صَبْرًا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِنِ امْتُحِنُوا بِأَنْوَاعِ الْمِحَنِ، وَفُتِنُوا بِأَنْوَاعِ الْفِتَنِ، وَهَذِهِ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، كَأَهْلِ الْأُخْدُودِ وَنَحْوِهِمْ، وَكَسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ، حَتَّىٰ كَانَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: لَا تَغْبِطُوا أَحَدًا لَمْ يُصِبْهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ بَلَاءٌ.اهـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ لِلتَّلَوُّنِ فِي الدِّينِ مَخَاطِرَ عَظِيمَةً: مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: الْمُتَلَوِّنُ فِي الدِّينِ لَا يَكُونُ أَمِينًا. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي: «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»، وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا».

الثَّانِي: الْمُتَلَوِّنُ فِي الدِّينِ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ. أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي: «الْأَوْسَطِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ جَعَلَ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ». قَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: «الْكَبَائِرِ»: وَمَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ يَجْعَلُ لَهُ لِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعْنَىٰ مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ: أَيْ يَتَكَلَّمُ مَعَ هَؤُلَاءِ بِكَلَامٍ، وَهَؤُلَاءِ بِكَلَامٍ، وَهُوَ بِمَعْنَىٰ صَاحِبِ الْوَجْهَيْنِ. اهـ

الثَّالِثُ: التَّلَوُّنُ فِي الدِّينِ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: «طَرِيقِ الْهِجْرَتَيْنِ، وَبَابِ السَّعَادَتَيْنِ» عَنِ الْمُنَافِقِينَ: وَمِنْ صِفَاتِهِمْ كَثْرَةُ التَّلَوُّنِ، وَسُرْعَةُ التَّقَلُّبِ، وَعَدَمُ الثَّبَاتِ عَلَىٰ حَالٍ وَاحِدٍ، بَيْنَا تَرَاهُ عَلَىٰ حَالٍ تُعْجِبُكَ مِنْ دِينٍ أَوْ عِبَادَةٍ أَوْ هَدْيٍ صَالِحٍ أَوْ صِدْقٍ، إِذِ انْقَلَبَ إِلَىٰ ضِدِّ ذَلِكَ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَهُ، فَهُوَ أَشَدُّ النَّاسِ تَلَوُّنًا وَتَقَلُّبًا وَتَنَقُّلًا، جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ قَطْرَبٌ بِالنَّهَارِ.

الْقَطْرَبُ: ذُبَابَةٌ لَا تَفْتُرُ عَنِ الْحَرَكَةِ.

عِبَادَ اللهِ: احْذَرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ هَؤُلَاءِ الْمُتَلَوِّنِينَ فِي دِينِ اللهِ، فَهُمْ كَالْعَقَارِبِ. قَالَ الْإِمَامُ الْبَرْبَهَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي: «طَبَقَاتِ الْحَنَابِلَةِ»: مَثَلُ أَصْحَابِ الْبِدَعِ مَثَلُ الْعَقَارِبِ، يَدْفِنُونَ رُؤُوسَهُمْ وَأَبْدَانَهُمْ فِي التُّرَابِ، وَيُخْرِجُونَ أَذْنَابَهُمْ، فَإِذَا تَمَكَّنُوا لَدَغُوا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْبِدَعِ هُمْ مُخْتَفُونَ بَيْنَ النَّاسِ، فَإِذَا تَمَكَّنُوا بَلَغُوا مَا يُرِيدُونَ.

وَاحْذَرُوا مَنْ تَصَدَّرَ تَعْلِيمَ النَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَتَأَهَّلَ، وَتَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ. فَحُبَّ التَّصَدُّرِ وَالشُّهْرَةِ مِنْ أَشَدِّ الْعَوَائِقِ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي: «الْفَتْحِ»: قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا تَصَدَّرَ الْحَدَثُ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ.

إِنَّ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، وَمَزْلَقٌ خَطِيرٌ، يُورِدُ صَاحِبَهُ مَوَارِدَ مُهْلِكَةً، مِنَ الْغُرُورِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالِاسْتِنْكَافِ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَيُورِثُهُ الْحَسَدَ، وَالْكِبْرَ، وَكُلُّهَا مِنْ مُفْسِدَاتِ الْقَلْبِ.

إِنَّ الْمُتَشَبِّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ قَدْ سَيْطَرَ عَلَيْهِ حُبُّ الْفَخْرِ حَتَّىٰ مَلَأَ قَلْبَهُ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ»: إِنَّ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ أَحَبَّ الْمَدْحَ وَكَرِهَ الذَّمَّ، فَرُبَّمَا حَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَىٰ تَرْكِ كَثِيرٍ مِنَ الْحَقِّ خَشْيَةَ الذَّمِّ، وَعَلَىٰ فِعْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْبَاطِلِ رَجَاءَ الْمَدْحِ، فَمَنِ اسْتَوَىٰ عِنْدَهُ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحَقِّ، دَلَّ عَلَىٰ سُقُوطِ مَنْزِلَةِ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ قَلْبِهِ، وَامْتِلَائِهِ مِنْ مَحَبَّةِ الْحَقِّ، وَمَا فِيهِ رِضَا مَوْلَاهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْيَقِينُ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسُخْطِ اللهِ. وَقَدْ مَدَحَ اللهُ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ. اهـ